﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾ [التّوبة: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

العلاقة بين النَّهي عن إيثار غير محبَّة الله، وامتحان الانكسار بداية يومَ حُنَين

لـمَّا هدَّدَ اللهُ ﷻ مَن آثَرَ القراباتِ والأموالَ على محبَّةِ اللهِ سُبحانَهُ ومحبَّة رسولِهِ ﷺ، وكانَت بعضُ النُّفوسِ قد يَعْتَريها مِنَ الغُرورِ بِالْكَثْرَةِ ما يَجْعَلُها تَغْفَلُ عن هذا التَّهديد؛ ساقَ اللهُ تعالى قصَّةَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ دليلًا على المُبْهَمِ مِنَ التَّهديدِ، وأنَّ مِن جملَةِ ما هُدِّدوا به الهَوانَ والانكسارَ، وصورةُ ذلك: أن يُسلِّطَ اللهُ سبحانَه عَلَيْهِمْ - وإنْ كانوا عددًا كثيرًا - أَقْوياءَ غَيْرَهُمْ، فقالَ ﷻ: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَصَرَكُمُ﴾: (النُّونِ والصَّادِ والرَّاءِ): تَدورُ حَوْلَ معنى إتْيانِ خيرٍ وإيتائِه، بما فيه زيادةُ مناسِبةٌ وقوَّةٌ، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[2]. ومنه سُمِّيَ المطرُ نَصْرًا[3]، والنَّصْرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخَصْمِ عليه في حَرْبٍ أو غَيْرِها؛ بقوَّةِ النَّاصر وغَلَبَتِه[4]، واستنصره على عدوِّهِ: سأله أن ينصُرَه عليه، وتناصَر القومُ: نَصَر بعضُهم بعضًا، و(انتصر) منه: انتقم[5]، وقولُ اللهِ تعالى: ﴿لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّـهُ﴾، أي: أعانَكُم اللهُ على عدوِّكُمْ، فظَفِرْتُمْ في حَرْبِكُمْ إيَّاهُ.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل: 1/79، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (نصر).
(3) الزَّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(4) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/486.
(5) الرَّازيّ، مختار الصّحاح: (نصر).

2) ﴿حُنَيْنٍ﴾: اسمُ وادٍ بينَ مَكَّةَ والطَّائف، كانَتْ بِهِ وقْعَةُ أَوْطاسٍ[1]، و(حُنَيْنٌ): يُذكَّر ويُؤنَّث؛ فإن أُريدَ به البَلْدَةُ والبُقْعَة فَهوَ مؤنَّثٌ، ويُمْنَعُ مِنَ الصَّرف لِلْعَلَميَّة والتَّأنيث، وإن أُريدَ بِهِ الموضِعُ والبَلَدُ فهو مذكَّرٌ، ولا موجِبَ لمنعِهِ مِنَ الصَّرف حينَئذٍ[2]، وقال السُّهيلي: عُرِفَ هذا الموضعُ بحُنين بنِ نائبةَ بنِ مهليائل، مِنَ العمالقة، بينَه وبينَ مكّة بضعةَ عشرَ ميلًا، وقيل: سُمِّي بأخي يثربَ حُنين[3]، قال الشَّاعر[4]:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمُ وَشَدُّوا أَزْرَهُ *** بحُنينَ، يَوْمَ تَوَاكَلَ الأَبْطَالُ

3) ﴿تُغْنِ﴾: (الغَينُ والنُّون والحَرْفُ المعتلُّ): تدور كثيرٌ مِن اشتقاقاتِها على مَعْنَى الكِفايَة، ومِنْهُ قولُهم: فلانٌ لا يُغْني غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يكفي كفايَتَهُ[5]، والغَناءُ: الكفايَةُ والإجْزاءُ[6]، يقال: لي عن هذا غُنيَة، وأنا عنه غنيٌّ، (وهو أغنى عنه مِنَ الأقرع عن المِشْط)، وقد تغانَوا، قال الشَّاعر[7]:

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ *** وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

ومعنى قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾: لَمْ يُجْزِئْ عنكُمْ ولَمْ تَنْفَعْكُمْ.

4) ﴿رَحُبَتْ﴾: (الرَّاءُ والحاءُ والباءُ): تدلُّ تصريفاتُها على معنى السَّعَة، ومنه قولُهم: مكانٌ رَحْبٌ، أي: واسعٌ، وقولُهم: مَرْحَبًا، أي: أَتَيْتَ سعَةً[8]، ومِن هذا قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي: بِما اتَّسَعَتْ[9].

5) ﴿مُّدْبِرِينَ﴾: (الدَّالُ والباءُ والرَّاءُ): تدلُّ تصريفاتُهُ على آخِرِ الشَّيءِ وخَلْفِهِ[10]، ومنه: الدُّبُرُ؛ وهو نَقيضُ القُبُل مِن كُلِّ شَيْءٍ[11]، ومنه: أدبارُ السُّجودِ؛ وهي أواخرُ الصَّلواتِ، وإدْبارُ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (حن)، وياقوت الحمويّ، معجم البلدان: 2/313.
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (حنن).
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حنن).
(4) البيت لحسَّان بن ثابت الأنصاري ﷺ، ينظر: الجوهريّ، الصّحاح، والرَّازيّ، مختار الصّحاح: (حنن).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غني).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (غني).
(7) الرَّازيّ، مختار الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غني).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحب).
(9) أبو عُبيد الهرَويّ، الغريبين في القرآن والحديث: (رحب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دبر).
(11) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (دبر).

النُّجوم: عند الصُّبْحِ في آخِرِ اللَّيْلِ[1]، وَوَلَّاهُ دُبُرَهُ: كِنايَةٌ عَنِ الهزيمَةِ والفِرارِ مِنَ المعرَكَةِ[2]، ومنه قولُ اللهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكير بانكسار المؤمنين في حُنين، رغم كثرةِ العَدَدِ، وقُوَّة العُدَدِ

يقول: لقد نَصَرَكُمُ اللهُ سبحانَه أيُّها المُؤْمِنون، في مواقِعَ كَثيرَةٍ، حين أَخَذْتُم بالأسبابِ، ووَطَّنْتُم أَنْفُسَكُم على لِقاءِ عَدوِّكم، وتَوَكَّلْتُم على اللهِ ﷻ، وفي يومِ حُنَيْنٍ غَرَّتْكُمُ الكَثْرَةُ فلم تَنْفَعْكُمْ، وظَهَرَ عَلَيْكُمْ عَدوُّكُم، فلم تَجِدوا مَلْجَأً في الأَرْضِ على سَعَتِها، فَفَرَرْتُم مُنْهَزِمينَ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

تَسْليطُ الهَوانِ والانْكِسارِ على المُخالِفين لِلأوامِرِ، مِن عَدْلِ اللهِ القاهِر

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لكونِه واقعًا استئنافًا ابتدائيًّا، وذلك أنَّ الآيَةَ مسوقَةٌ لبيانِ شواهدِ ما تقدَّم مِنْ نَصْرِ اللهِ سبحانَه أهلَ الإيمانِ في مواطنَ كثيرةٍ، وتذكيرٍ باقترانِ التَّأييدِ الرَّبَّانيِّ لحالِ الامتثالِ لأمرِهِ سبحانَه[4]، ويَجوزُ أن تَكونَ عِلَّةُ الفَصْلِ كونَ الآيةِ واردَةً جوابًا عن سُؤالٍ يُفْهَمُ مِنَ الأُوْلَى، وذلك أنَّ اللهَ سبحانَه لمَّا هدَّدَ المُؤْثِرينَ القراباتِ والأموالَ على محابِّ اللهِ تعالى ورسولِه ﷺ، وأبْهَمَ ذلكَ التَّهديدَ في قولِه: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾؛ أَوْرَثَ ذلك سؤالًا وهو: ما الأَمْرُ الذي يُتَرَبَّصُ لإتيانِه، ويُخْشَى مِنْهُ؟ فكأنَّه قيلَ جوابًا عن ذلك: هو الهَوانُ والانكسارُ، فبَعثَ هذا سُؤالًا آخَرَ في نفسِ المُتَلَقِّي، وهو: وكيف يكونُ ذلك؟ فجاءَ الجوابُ: بأنَّ اللهَ سبحانَه يُسَلِّطُ

(1) الخليل، العين: (دبر).
(2) الفيُّوميّ، المصباح المنير: (دبر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/178 - 179، ونخبة مِنَ العلماء، التَّفسير الميسَّر، ص: 190.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/154.

عليكُمْ أقوياءَ غيرَكُمْ، وإنْ كانَ عدَدُهم قليلًا، كما سلَّطَكُمْ - وكنتُمْ كذلكَ - حتَّى صِرْتُمْ إلى ما آلَ إليهِ أمرُكُمْ[1].

نُكْتَةُ التَّوْكيدِ:

تَحقيقُ النَّصْرِ والتَّذْكيرُ بِهِ، دليلٌ على ألطاف اللهِ تعالى وعَظَمَته

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، اللَّامُ في ﴿لَقَدْ﴾ مُوطِّئَةٌ للقسَمِ، والتَّقدير: واللهِ لَقَدْ نصرَكُمُ[2]، و(قَدْ) مِنْ جملَةِ مؤكِّداتِ الجملَةِ الفِعْليَّةِ، فاجتَمَعَ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ ثلاثَةُ مؤكِّداتٍ؛ وهي: القسَمُ، واللَّامُ، وقَدْ، والنُّكْتَةُ في هذا التَّأكيدِ: تحقيقُ هذا النَّصْرِ؛ وذلك أنَّ القَوْمَ كانوا كأنَّهُمْ نسُوهُ، فنُزِّلوا منزلَةَ مَن يحتاجُ إلى توكيد الخبَرِ وتقويَتِهِ[3].

سِرُّ تَعْريفِ المُسْنَدِ إليه بِالْعَلَميَّةِ:

مِنْ صوَرِ عَظَمَةِ نَصْرِ اللهِ: النَّصْرُ مَعَ ضَعْفِهِمْ، وقوَّةِ أَعْدائِهِم

عُرِّفَ المسنَدُ إليهِ بالعلَميَّةِ، في قول الله سبحانَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾؛ لبيانِ قوَّةِ هذا النَّصْرِ وعَظَمَتِهِ، فهو نصرٌ مِنْ عِنْدِ مَن جمَعَ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، والصَّادِرُ مِنَ العظيمِ عظيمٌ، ومِنْ أَوْجُهِ عظَمَةِ هذا النَّصْرِ: وقوعُهُ مَعَ شدَّةِ ضَعْفِ المَنْصورينَ، وقوَّةِ المَنْصورِ عليهم[4].

نُكْتَةُ الإظْهارِ في مَوْضِعِ الإضْمارِ:

محبَّةُ اللهِ تعالى آثر وأولى، ومَن تخلَّى عن الله تخلَّى اللهُ عنه

في قول اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ إظْهارٌ في مَوضِعِ الإضْمارِ، وذلك لأنَّ مقتضَى الظَّاهِرِ أَنْ يَرِدَ النَّظْمُ القرآنيُّ: (لقَدَ نصرَكُمْ في مواطِنَ كثيرةٍ)، بإسْنادِ الفعلِ إلى الضَّميرِ المسْتَتِرِ فيه؛ وذلكَ لتقدُّمِ ذِكْرِ الاسمِ الأحسَنِ (اللهِ)، في قوله سبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ونُكْتَةُ الإظْهارِ: تعظيمُ شأْنِ هذا النَّصْرِ، ولإظهار أنَّ إيثار محبَّةِ اللهِ سبحانَه، وإن كان قد يُفَوِّتُ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/423.

شيئًا مِنَ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ، إلَّا أنَّ فيهِ حَظَّ الآخرةِ، وحُظوظًا أُخرَى مِنَ الدُّنيا، كالنَّصرِ، وما يتْبَعُهُ مِنَ المغانمِ، وصيانَةِ بَيْضَةِ الإسْلامِ من اعتداءِ أعدائِه[1].

بَراعَةُ تَلْوينِ الكَلامِ:

الإيماءُ إلى ما وقَعَ في يومِ حُنَيْنٍ، مِنْ قِلَّةِ الثَّباتِ أَوَّلَ الأَمْرِ

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾، مَعْطوفٌ على محلِّ: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾، وصِيغَ الأوَّلُ بذِكْرِ المكانِ ﴿مَوَاطِنَ﴾، والآخَرُ بذِكْرِ الزَّمانِ، ونُكْتَةُ تَلْوينِ الكلامِ وتغْييرِهِ: الإيماءُ إلى ما وقعَ في يومِ حُنَيْنٍ من قِلَّةِ الثَّباتِ في بادئِ الأَمْرِ[2].

نُكْتَةُ العَطْفِ بالواو في: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾:

مَواطِنُ الحُروبِ تَسْتَلْزِمُ زَمانًا تَقَعُ فيه الحَرْبُ، وتخلَّد به على المدى

عُطِفَ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ من قول اللهِ سبحانَه: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ على محلِّ: ﴿فِي مَوَاطِنَ﴾، والتَّقديرُ: ونصَرَكُم يومَ حُنينٍ، وهو من جمْلَةِ المواطِنِ التي نُصِرْتُمْ فيها؛ وذلك لأنَّ مواطِنَ الحَرْبِ تسْتَلْزِمُ زمانًا تقعُ الحَرْبُ فيها، فلفظُ المواطِنِ دالٌّ على الأيَّامِ، ولَفْظُ الأيَّامِ دالٌّ على المواطِنِ، فلمَّا أُضيفَ اليومُ إلى مكانٍ وهوَ حُنَيْنٌ؛ دلَّ على أنَّه من جُملةِ مواطِنِ النَّصرِ، ولذا عُطِفَ عليه بالواو، ولو لَمْ يُعْطَفْ لَتوُهِّمَ أنَّ المواطِنَ كُلَّها كانَتْ في يومِ حُنَيْنٍ، وليس الأَمْرُ كذلك[3].

سِرُّ عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ:

ظَفَرُ المؤمنين يومَ حُنَيْنٍ بَعْدَ يَأْسٍ، وحُلولُ الفَرَجِ عَلَيْهِمْ بَعْدَ شِدَّةٍ

يَجوزُ أَن يُعتبَرَ الحذْفُ في جانبِ المعطوفِ عليه لا المعطوفِ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾، والتَّقديرُ: لقد نصرَكُمُ اللهُ في أيَّامِ مواطِنَ كثيرَةٍ، ويكونُ على هذا الوَجْهِ: عطفُ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ مِنْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذْ إنَّ يومَ حُنَيْنٍ مِنْ جُملَةِ أيَّامِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55، والآلوسيّ، روح المعاني: 5/266.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.

المواطِنِ التي نُصِروا فيها، ونُكْتَةُ هذا العَطْفِ: التَّنويهُ بشأْنِ الفَرْدِ الخاصِّ، وهو يومُ حُنَيْنٍ؛ لكونِ أَمْرِهِ عجيبًا، والواقعِ فيه غريبًا، وهو الظَّفَرُ بعدَ يأسٍ والفرَجُ بعدَ شدَّةٍ[1]، فَتَخْصيصُ يومِ حُنَيْنٍ بالذِّكْرِ لما فيهِ مِنَ العِبْرَةِ بِحُصولِ النَّصْرِ، عِنْدَ امْتِثالِ أَوامِرِ اللهِ ورَسولِهِ ﷺ، وحصولِ الهزيمَةِ والانكسارِ عند إيثارِ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ على امتثالِ الأوامِرِ الشَّرعيَّةِ، وليسَتْ نُكْتَةُ تخصيصِهِ عِظَمَ الثَّوابِ وكَثْرَتَهُ؛ لأنَّ يومَ بَدْرٍ أَعْظَمُ مِنْهُ وأَفْخَمُ[2].

بلاغة الإحْتِباكِ:

في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ احتباكٌ، وذلك لأنَّ قولَهُ تعالَى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ دالٌّ على المَكانِ صراحَةً، ويُشْعِرُ بالزَّمانِ لزومًا، وقولَهُ سُبحانَهُ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ دالٌّ على الزَّمانِ صراحَةً، ويُشْعِرُ بالمكانِ لُزومًا، فمجموعُ الجُملَةِ يُفيدُ حذفًا مُتقابِلًا، والتَّقديرُ: لقَدْ نصرَكُمُ اللهُ في مواطنَ كثيرةٍ وأيّامِها، وفي يَوْمِ حُنَيْنٍ ومَوْطِنِهِ، فحُذِفَ مِنْ كُلٍّ موضعٍ ما دلَّ عَلَيْهِ مُقابِلُهُ[3].

من روعة القرآن، التَّفَنُّنُ في الحَذْفِ وما يدلّ عليه من سياق البيان

نُكْتَةُ إضافَةِ الإعْجابِ إلى الجميع:

أُضيفَ فِعْلُ الإعجابِ إلى الجَميعِ في قولِ اللهِ سبحانَه: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾، مع أنَّ الإعْجابِ صادِرٌ عن بعضِهم، أو واحدٍ مِنْهُمْ؛ وذلك للإيماءِ إلى أنَّهم لِعُلوِّ قَدْرِهم ومكانَتِهم يَنْبَغي ألَّا يكونَ منهم مَن تصدُرُ منه مِثْلُ تلكَ المقالَةِ[4].

علوُّ قَدْرِ الصَّحابَةِ ورَفيعُ مَكانَتِهِمْ، خلّدهم في القرآن

دلالة موقعِ قولِه: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾:

لِقَوْلِ اللهِ سبحانَه: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ موقِعٌ عَجيبٌ بديعٌ، وذلك أنَّهم في أثناءِ المجابهة للكافر المعتدي، وهذا مِن جليلِ

خَطَأُ التَّعْويلِ على الكَثْرَةِ، وعواقبُ الإعجابِ بها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/266.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/155.
(3) الشَّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 8/4994 - 4995.
(4) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/392، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/424.

الأعمالِ الصَّالحَةِ، عاوَدَ بعضَهُمْ إيثارُ شيءٍ من حظوظِ الدُّنيا، على امْتِثالِ أمرِ اللهِ ﷻ وأمْرِ رسولِهِ ﷺ، فاقْتَرَنَ ضِدَّانِ: إيثارُ أمْرِ اللهِ سبحانَهُ بالجِهادِ، وإيثارُ الحظوظِ الدُّنيويَّةِ، فجاءَ قولُهُ ﷻ: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، تنبيهًا على خطئِهِمْ في هذا الإعجابِ، وأنَّه ما كان ينبغي لهم أن يُعَوِّلوا على الكثْرَةِ[1].

دلالَةُ تَنْكيرِ لفظ ﴿شَيْـًٔا﴾:

نُكِّرَتْ كلمَةُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مِنْ قولِ اللهِ ﷻ: ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾؛ للدّلالَةِ على التَّقليلِ والتَّحقير، أي: لَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ كثرَتُكُم شيئًا قليلًا حقيرًا، فنَفْيُ إغناءِ الكثرةِ عنهم فوقَ ذلك مِن بابٍ أَوْلَى وأَحْرَى، "فولَّوا مُدْبرين، حتَّى ضاقت عليهمُ الأرض على سعتها، مِن شدَّة فَزَعهم، فلم يهتدوا إلى النَّجاة سبيلًا، ولم يثبت منهم إلَّا عددٌ قليل مع الرَّسول ﷺ، وكان ذلك ابتلاء مِنَ اللهِ لهم على عُجْبِهم بكثرتهم"[2]، فكان في هذه الدّلالَةِ إفادَةٌ للعُموم، وذلك لأنَّ النَّكِرَةَ في سياقِ النَّفْيِ تُفيدُهُ.

التَّحْذيرُ مِنَ الاِعْتِدادِ بِالْكَثْرَةِ الغُثائيَّة، وأنَّها لا تُغْني مِنَ الأمر شيئًا

دلالَةُ الباءِ في ﴿بِمَا﴾:

الباءُ في ﴿بِمَا﴾، مِن قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ للمُلابَسَةِ، والتَّقديرُ: (ضاقَت عليكُمُ الأرضُ حالَ كوْنِها مُلابسَةً لرُحْبِها وسعَتِها)، أي: لا ضيقَ فيها[3]، ويحْتَمِلُ أن تكونَ الباءُ بمعنى (مَعَ)، أي: ضاقَتْ عليكُم الأرضُ مع اتِّساعِها[4]، وهذا يَرْجِعُ إلى معنى الملابسَةِ، كما أَوْمأَ إليه الآلوسيُّ[5]، ويجوزُ أن تكون الباءُ بمعنى (في)، فيُقال: ضاقَت الأرض برُحْبِها، وضاقَتِ الأرضُ في رُحْبِها[6].

أَثَرُ حروفِ المعاني في إِثْراءِ البيان القُرْآنيّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/156.
(2) أسعد حومد، أيسر التَّفاسير، ص: 261.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/424، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/55.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.
(6) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/246.

بَلاغَةُ الإسْتِعارَة:

في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ استعارةٌ، حيثُ شُبِّهَ عَدَمُ وُجْدانِ مكانٍ يستَقِرُّونَ فيه مطمئِنِّينَ بالضِّيقِ؛ لأنَّ الموضِعَ الضَّيِّقَ لا يُستَقرُّ فيه، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ[1]، وغرض الاستِعارَةِ هنا: إبْرازُ المَعْنَويِّ في صورةِ المحسوسِ؛ لِكَوْنِهِ أوضَحَ لِلذِّهْنِ، وأعْلَقَ بالقَلْبِ، وأبْلَغَ في التَّصويرِ، وقد يُلْمَح فيها تمثيلٌ لِحالِ المُسْلِمينَ، عند اشْتِداد البَأْسِ عليهم، واضْطِرابِهِم في حُنَيْنٍ، وعدَمِ اهْتِدائِهِم لِطَريقِ دَفْعِ عَدوِّهم عَنْهُم، بِحالِ مَن يَرى الأَرْضَ الواسِعَةَ الرَّحْبَةَ ضَيِّقَةً، فالضِّيقُ مجازيٌّ غيرُ حقيقيٍّ، بقرينة قوله تعالى: ﴿بِمَا رَحُبَتْ﴾، أي: مع كونِها في واقعِ الحالِ رَحْبَةً واسعةً، فالآية استعارةٌ تمثيليَّةٌ لحالِ مَن لا يَقْدِرُ على الخَلاصِ مِنْ شدَّةٍ ما، بسببِ اختلالِ التَّفكيرِ، بحالِ مَن كان في مكانٍ ضيِّقٍ يُريد الخلاصَ بالْخُروجِ مِنْهُ، فلا يقدِرُ علَى مجاوَزَتِهِ أو الانتقالِ منه[2].

إبْـرازُ المَعْنَـويِّ فـي صـورَةِ المَحْسـوسِ، أَوْضَـحُ لِلذِّهْنِ وأَبْـلَـغُ في التَّصْويرِ

دلالَةُ حَرْفِ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾:

حرفُ العَطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، دالٌّ على التَّراخي، وهو تراخٍ رُتْبِيٌّ، والتَّقديرُ: وأعْظَمُ ممَّا نالَكُمْ مِنَ الشَّرِّ أَنَّكُم ولَّيتُم مُدْبِرينَ[3]، وفيه أيضًا: إيماءٌ إلى البُعْدِ المَعْنَويِّ، بينَ إرادَةِ النَّصْرِ والفِرارِ[4].

تَوْلِيَةُ الأَدْبارِ فِرارًا مِنَ الحَرْبِ، مِنْ أَعْظَمِ الشُّرورِ

بلاغة الكِنايَةِ:

تَوْلِيَةُ الأَدْبارِ في قول اللّهِ ﷻ: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، كنايَةٌ عَنِ الفرارِ مِنَ الأعداءِ، بقرينَةِ ذِكْرِهِ في سياقِ ذِكْرِ الحَرْبِ وما فيها مِن ملاقاةِ العَدوِّ؛ فتَوْلِيَتُهُمْ مُدْبِرينَ: مستعمَلٌ في لازِمِ مَعْناهُ، مع

مَعْنى تَوْلِيَةِ الأَدْبارِ: الفِرارُ مِنَ العَدوِّ قَبْلَ الانتصار

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 10/157.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 6/3266.

بعض معناهُ الأصليِّ؛ وذلك لأنَّ صَرْفَ الظَّهْرِ إلى العَدوِّ بعْدَ النَّصْرِ، للانْصِرافِ إلى المعسكَرِ مِنَ الضَّروراتِ، وإلَّا لَزِمَ مِنْهُ أن يَبْقَى المُسْلِمونَ مواجهينَ جيشَ عَدوِّهِمْ مواجهةً دائمَةً، فدلَّ هذا على أنَّ المرادَ بتوليَتِهِم مُدْبِرينَ فِرارُهُم مِنْ عُدوِّهِمْ قَبْلَ النَّصْرِ.

نُكْتَةُ إِسْنادِ التَّوَلِّي إلى الجميع:

عُلُوُّ شَأْنِ الصَّحابَةِ، يقْتَضي تَرَفُّعَهُمْ عَن وُقوعِ التَّوَلِّي منهم

أُسْنِدَ فِعْلُ التَّوَلّي إلى الجميع، في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، مع أنَّ التَّولِّي صادِرٌ عَنْ أَكْثَرِهِم[1]؛ للإيماءِ إلى أنَّهم لِعُلُوِّ شأنِهِم ومكانَتِهِم، يَنْبَغي ألَّا يصدُرَ منهم هذا التَّولِّي، لا سيَّما وأنَّه يترتَّب عليهِ انكشافُ ظَهْرِ رسولِ اللّهِ ﷺ للأَعْداءِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالْإِدْبارِ بَعْدَ ذِكْرِ التَّوَلِّي:

اسْتِبْعادُ الِانْكِسارِ اتِّكالًا عَلى الكَثْرَةِ والقُوَّةِ، مِن سُوءِ التَّقْدير

جيءَ بالإدبارِ بعدَ ذِكْرِ التَّولِّي، في قول اللّهِ سبحانَه: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾، تحقيقًا لمعنى الانْهِزامِ والانْكِسارِ؛ للإيماءِ إلى ما كان لديهم مِن استبْعادِهِ اتِّكالًا على الكَثْرَةِ والقُوَّةِ[2]، والمعنى: "﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾، أي: الكفَّارَ ظهورَكم، على أنَّ (ولَّى) متعدِّية إلى مفعولين، وقوله تعالى: ﴿مُّدْبِرِينَ﴾ حالٌ مؤكِّدة، وهو مِنَ الإدبار، بمعنى الذَّهاب إلى خلف، والمراد مُنهزمين"[3]، وقد كانت الهزيمة نتيجةً منطقيَّة للغُرور بالكَثْرة الكاثرة، والقُوَّة الظَّاهرة، حتَّى: "ضاقت عليكم الأرض برُحْبِها وسعتها، فلم تجدوا لكم فيها مذهبًا ولا مُلْتَحدًا، ثمَّ ولَّيتُم مُدْبرين، أي: ولَّيتم ظهوركم لعدوّكم مدبرين، لا تلوون على شيء"[4].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 5/393.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 8/425.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 5/268.
(4) محمد رضا، تفسير المنار: 10/220.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»